﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٥٨﴾ [الأنعام: 158]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

مَنْ كفرَ باللهِ، ولم يؤمنْ بالبعثِ، لا ينفعُه الإيمانُ بعد فواتِ الأوانِ

بعد أنْ ذكرتِ الآياتُ السَّابقةُ إقامةَ الحجَّةِ على الظَّالمين، بإنزالِ القرآنِ، وأنَّ في ذلك دفعًا لتعلُّلِهم بعدمِ إنزالِ كتابٍ عليهم، كما أُنزِل على السَّابقين، وأنَّهم بعدَ نزولِ القرآنِ هدًى ورحمةً كذَّبوا به، بل صَدَفُوا عن آياتِه؛ جاءَ الإنذارُ الشَّديدُ لهُم بتوجيه سُؤالٍ غرضُه: بيانُ حالِهم الَّذي هم عليه، من عدمِ الاكتراثِ بالذِّكرِ، وعدمِ إيمانِهم بالبعثِ، وإشعارٌ بأنَّ الكفرَ إن طغى على قلبِ صاحبِه، فإنَّ اليأسَ من إيمانِه هو الأظهرُ، وتوطئةٌ لبيانِ حالِ المفرِّقين دينَهم بسببِ أهوائهم واتِّباعِ شهواتهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنظُرُونَ﴾: فعلٌ مضارعٌ دالٌّ على الحالِ والاستقبالِ، والنَّظرُ على قسمين: بصريٌّ وقلبيٌّ، والأصل فيه: "تأمُّل الشَّيء ومعاينتُه، ثمَّ يُستعار، ويُتَّسع فيه"[1]، و"النَّظر: تقليبُ البصر والبصيرة، لإدراكِ الشَّيء ورؤيته، وقد يرادُ به التأمُّل والفَحْصُ، وقد يُراد به المعرفةُ الحاصلةُ بعد الفحص، وهو الرويَّة، يقال: نظرتَ فلم تنظر، أي: لم تتأمَّل، ولم تتروَّ"[2]، ومعنى الفعلِ ﴿يَنظُرُونَ﴾، أي: ينتظر هؤلاء المخاطَبون مجيءَ الملائكةِ للعذابِ، أو لقبض الأرواح.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نظر).
(2) الرّاغب، المفردات: (نظر).

2) ﴿كَسَبَتْ﴾: "يقال: كَسَبتُ الشَّيءَ أكسِبهُ كَسْبًا، واكتسبتُه اكتسابًا، ويقال: كَسَبْتُ الرَّجلَ مالًا، فكَسَبه"[1]، وهو يدلُّ "عَلَى ابْتِغَاءٍ وَطَلَبٍ وَإِصَابَةٍ"[2]، ومعناه: طلبُ الرِّزقِ عمومًا[3]، ومن معانيه: "ما يتحرَّاه الإنسان ممَّا فيه اجتلابُ نفعٍ، وتحصيل حظٍّ، كَكَسْبِ المال. وقد يُستعمل فيما يَظنُّ الإنسان أنَّه يَجْلِبُ منفعةً، ثمَّ استُجلِبَ به مضرَّةٌ"[4]، والمقصودُ به في الآيةِ ما يَكْسِبُه الإنسانُ من الإيمانِ، وعمل الصَّالحات.

3) ﴿ٱنتَظِرُوٓاْ﴾: فعلٌ طلبيٌّ دالٌّ على الأمر، جذره: (نَظَرَ)، والنَّظرُ يأتي معناه مساويًا للانتظارِ، فنظرْتُ فلانًا، وانتظرْتُهُ بمعنًى واحد[5]، وجعل النَّظر بمعنى الانتظار، "كأنَّه ينظر إلى الوقت الَّذي يأتي فيه"[6]، فالانتظار: التَّربُّص، ومعنى ﴿ٱنتَظِرُوٓاْ﴾، "أي: انتظروا ما تتربَّصون به من ظهوركم علينا على زعمكم، إنَّا منتظرون ما وعدنا ربُّكم من نصره"[7]، فهو بمنزلة التَّهديد والوعيد على الانتظار والإمهال، أو على التَّريُّث والتَّأخُّر في دخولهم الإسلام، حتَّى يأتيهم العذاب[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مـــاذا ينـتـظـرُ المكذِّبُ والمعرِضُ غـــيرَ مـلائـكـةِ العذابِ أو الموتِ

ابتدأتِ الآيةُ بسؤالٍ إنكاريٍّ، مشوبٍ بوعيدٍ وتهكُّمٍ، مترتِّبٍ على تكذيبِهم وصدِّهم عن آياتِ اللهِ، وإعراضهم عنها، فماذا ينتظرون؟ هل ينتظرون أن تأتيَهم الملائكةُ بالعذابِ أو بالموتِ، فَتَقْبِضَ أرواحَهم،

(1) ابن دريد الأزديُّ: (كسب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كسب).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (كسب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (كسب).
(5) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة: (نظر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نظر).
(7) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (نظر).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/191.

أو أنْ يأتيَهم "بعضُ آيات الله قبل قيام السَّاعة، وهي الآياتُ الموجبةُ للإيمان الاضطراريِّ، حين يرون شيئًا من أشراط السَّاعة"[1]، أو أنْ يأتيَهم ربُّك للفَصْلِ بين خلقِه في موقفِ القيامةِ، فلا ينفعُ نفسًا لم تكن آمنتْ من قبلُ، أو كَسَبَتْ في إيمانِها خيرًا، ثمَّ عقَّبه بأمرِهم بأن ينتظروا، ليروا لمن تكون لهُ العاقبةُ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ في الآية الكريمة:

للمُغرِضِ عن آياتِ اللهِ التَّهديدُ والوعيدُ، وللمكذِّبِ التَّهكُّمُ والاستهزاءُ

تقع هذه الآية موقعًا بلاغيًّا، فهي استئنافٌ بيانيٌّ، إمَّا أن يكونَ ناشئًا عن قولِهِ تعالى: ﴿سَنَجْزِي ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام: 157]، فمعناه: التَّهديد والوعيد، فكأنَّ سائلًا يسأل عن موعدِ جزائِهم، فكانَ الجوابُ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

وإمَّا أن يكونَ ناشئًا عن قولِهِ تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ [الأنعام: 157]، فمعناه: التَّهكُّمُ والاستهزاء؛ لِأَنَّهُ يُثيرُ سُؤَالَ سَائِلٍ: (مَاذَا كَانُوا يَتَرَقَّبُونَ مِنَ الْآيَاتِ فَوْقَ الْآيَاتِ الَّتِي جَاءَتْهُمْ)؟ فكانَ الجوابُ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[2]، وهل كان تطلُّعهم إلى آيات أعظم ممَّا في وهمهم؟

والصَّحيحُ أنَّ بلاغةَ الاستئنافِ البيانيِّ، تقضي بأن يكونَ المعنيان مُرادَيْن، فالتَّهديد والوعيدُ متناسبٌ مع سيَاقِ الكلامِ، وكذلك التَّهكُّم بحال من جاءَتْه الآياتُ، ولا ينتظرُ إلَّا وقوعَ العذابِ، وهذا من بديعِ التَّنوُّعِ في الاستئنافِ البيانيِّ.

غرضُ الاستفهامِ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

خرجَ الاستفهامُ في قولِهِ تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ

(1) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 948.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/183.

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، إلى معنى النَّفي[1]؛ ليُؤذِنَ بالتَّبكيتِ[2] والتَّوبيخِ والتَّقريعِ والتَّهديدِ، جزاءً وفاقًا؛ فإنَّهم لن ينظروا إلَّا ما سيأتيهم جزاءَ تكذيبِهم وإعراضِهم وتماديهم، واستحكامِ الغفلةِ على عقولِهم.

دلالةُ الاستفهامِ على التَّبكيتِ والتَّهديدِ

نكتةُ العدولِ عن حرفِ النَّفي إلى حرفِ الاستفهامِ ﴿هَلْ﴾:

قولُه تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، التَّعبيرُ بحرفِ الاستفهامِ ﴿هَلْ﴾ الَّتي تخرجُ للنَّفي معَ الاستثناءِ، يحقِّقُ القَصْرَ، ويفيدُ الاستفهامَ الإنكاريَّ[3]، وهوَ أبلغُ منْ طريقةِ النَّفي المحضِ معَ الاستثناءِ؛ لِما في الاستفهامِ منْ ملمحِ التَّوبيخِ والإنكارِ.

خروجُ (هل) للنَّفي مع الاستثناءِ تلميحٌ للتَّوبيخِ والإنكارِ

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّةِ في قولِهِ: ﴿تَأْتِيَهُمُ﴾:

اختلف القُرَّاءُ في قراءةِ ﴿تَأْتِيَهُمُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾؛ فقرأَ حمزةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ بالياءِ ﴿يَأْتِيَهُمُ﴾ تذكيرًا، وقرأ الباقون بالتَّاء[4] تأنيثًا، ومن حيثُ جوازُ القراءةِ لغةً، فكلاهما جائزٌ، فالملائكةُ جمعُ تكسيرٍ، ويجوزُ في فعلِه التَّذكيرُ والتَّأنيث[5]، لكن على قراءةِ التَّاء فهي على تقديرِ جماعة الملائكة، وعلى قراءةِ الياءِ فهي على تقدير جمعِ الملائكة[6].

سرُّ قراءةِ التَّذكيرِ باعتبارِ الجمعِ، والتَّأنيثِ باعتبارِ الجماعةِ

نكتةُ أسلوبِ القَصْرِ:

لَمَّا خرَجَ الاستفهامُ في قولِهِ تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عن معناه الحقيقيِّ إلى النَّفي؛ عومِل معاملةَ النَّفي في لازمِ المعنى والنَّظم، ففيهِ تحقيقٌ للقصرِ بالنَّفي والاستثناء، ونكتتُه: الكشفُ عن حقيقةِ حالِ المُشركين، وأنَّهم لم يكونوا ينتظرون شيئًا

بيانُ ضَعفِ عقولِ المشركين في تصوُّرِهم لعذابِ الله

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/8، والشّيخ زاده، حاشية الشّيخ زاده: 4/178.

(2) التَّبكيت: استقبالُك المرءَ بما يكرَه من ذمٍّ وتقريعٍ وتوبيخٍ. يُنظر: الزّمخشريّ، الفائق في غريب الحديث: 1/125.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/184.

(4) ابن مهران، المبسوط في القراءات العشر: 205، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/266.

(5) ابن خالويه، إعراب القراءات السّبع، ص: 109، ومحيسن، الهادي شرح طيبة النّشر: 2/225.

(6) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 277.

بعد آياتِ اللهِ إلَّا الآياتِ الَّتي سألوها، وعلَّقوا إيمانَهم بأن يُجاء لهم بِها[1].

القَصْرُ بحسبِ الحقيقةِ والمجازِ في الآيةِ الكريمة:

من بديع بيانِ القرآنِ ائتلافُ الحقيقةِ والمجازِ في تجليَةِ المعنى

والقصرُ في قولِهِ تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ حقيقيًّا؛ لأنَّ عامَّتهم ينتظرونَ مجيءَ الآياتِ انتظارًا حقيقيًّا، ويحملونه على محمل الجدِّ. ويَحتملُ أن يكونَ مجازيًّا، غرضُه الاستهزاءُ والتهكُّمُ من قادتِهم ورؤوسِ الضَّلالةِ فيهم[2]، والمعنيانِ مُرادان على اعتبارِ أنَّ الانتظارَ الحقيقيَّ، يدلُّ على غفلتهم الَّتي تدعو إلى التَّهكُّمِ بِهم.

نكتةُ العُدُولِ عن (ينتظرون) إلى ﴿يَنظُرُونَ﴾:

غرضُ تصويرِ مشهدِ الانتظارِ وتجسيدِ الحالةِ النَّفسيَّةِ للمنتظرِ

عَدلَ النَّظمُ عنِ التَّعبيرِ بالفعلِ (ينتظرون) إلى الفعلِ ﴿يَنظُرُونَ﴾، ونكتةُ ذلك تنزيلُ الانتظارِ منزلةَ النَّظرِ، وما سيأتيهم من العذابِ منزلةَ الرُّؤيةِ العينيَّةِ، وهو أشدُّ وقعًا من الانتظار؛ لأنَّ فيه تجسيدًا وتصويرًا لما ينتظرُه أولئك من مجيءِ العذابِ، وعبَّرَ بالمضارعِ لبيانِ حالِهم الَّتي هم عليها من النَّظرِ المُحاطِ بالانتظارِ، وفي ذلك استمرارٌ لعذابِهم النَّفسيِّ وتجدُّدِه، حتَّى مجيءِ ما ينتظرون وقوعَه من موتٍ أو عذابٍ.

سرُّ التَّعبيرِ بالمضَارِعِ بدلًا من الاسمِ:

توقُّعُ إتيانِ العذابِ في كلِّ حينٍ عذابٌ متجدِّدٌ

عبَّرَ النَّظمُ بصيغةِ الفعلِ المضارعِ لفعلِ الإتيانِ في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾، ولم يُعبِّر بالاسم، فلم يقل: (إتيانُ الملائكة أو إتيانُ اللهِ...)، وذلك لبيانِ أنَّ الرَّغبةَ بالإتيانِ حدثٌ متجدِّدٌ، ورغبة مستَمِرَّةٌ لديهم، كي يبقى ترقُّبُهم وانتظارُهم الموتَ أو العذابَ قائمًا ومستمرًّا على الدَّوام، وفي ذلك زيادةٌ في العذابِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/184.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/184.

أثرُ إسنادِ فعلِ الإتيان إلى لفظِ (الرَّبِّ):

ترهيبُ المشركين من أماراتِ رحمةِ اللهِ بعبادِهِ

أُسنِدَ الإتيانُ إلى اللهِ ﷻ في قَولِهِ تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾؛ وذلك تهويلٌ للموقفِ في نفوسِ المخاطَبين، وترهيبٌ من ذلك اليومِ المشهودِ؛ فإنَّ في الجملة الإسناديَّةِ تخويفًا من إتيانِ الرَّبِّ لعذابِهم، والتَّعبير بلفظ الرَّبِّ يوحي بالاستيلاء، وينبئ عن أنَّه مالك كلِّ شيء[1].

فائدةُ إضافةِ ضميرِ النُّبوَّةِ إلى اسم الرّبوبيّة:

تأييدٌ وتثبيتٌ للنَّبيِّ ﷺ في مواجهةِ أهلِ الباطلِ

أُضيفَ لفظُ الرَّبِّ إلى ضميرِه ﷺ (ربُّك)، في ثلاثة مواضعَ في قولِه تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾؛ تأييدًا للرَّسولِ ﷺ، وتثبيتًا له أمام خصومه المُشركين؛ إذ كانوا يُفاخِرون بأربابِهم وآلهتِهم؛ فهو أولى أن يعتزَّ بربِّه، ويتثبَّت به[2].

غرضُ إبهامِ علاماتِ القيامةِ:

سـرُّ تحريكِ ذهنِ المخاطَبِ بقصدِ التَّرهيبِ والتَّخويفِ

المرادُ من الآيات في قولِه تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾، علاماتُ القيامةِ، ولو وقفتَ على ظاهرِ اللَّفظ؛ لألفيت تعميةً وإبهامًا للمرادِ، وهو أشراطُ السَّاعةِ من غير تعيينٍ لها، ودون أن يُعيِّنَ من ذلك شرطًا، وغرضُ ذلك تركُ السَّامعِ يتخيَّلُها، فيذهبُ في ذلك التَّخيُّلِ كلَّ مذهبٍ[3]، بقصدِ التَّرهيبِ النَّافعِ والتَّخويفِ الرَّادعِ.

سرُّ تقديمِ بعضِ الجملِ على بعضٍ في الآيةِ الكريمة:

ترتيبُ الجملِ مِنَ الأدنى إلى الأعلى زيادةٌ في التَّهديدِ

قولُه تعالى: ﴿تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾، هنا ثلاثُ جُمَلٍ، قدَّم فيها إتيانَ الملائكةِ، ثمَّ وسَّطَ إتيانَ الرَّبِّ، ثمَّ أخَّرَ إتيانَ بعضِ آياتِه، وسرُّ هذا التَّقديمِ والتَّوسيطِ والتَّأخيرِ، أنَّه من باب التَّرتيبِ التَّصاعديِّ من الأدنى إلى الأعلى في

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/309.
(2) الطّباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: 8/401.
(3) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 2/366، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/699.

تخويفهم تعزيزًا للوعيدِ، فإنَّ التَّحوُّلَ من الأدنى إلى الأعلى، يفيدُ التَّفخيمَ والتَّهويل.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ في جملة ﴿يَوْمَ يَأْتِي﴾:

جاءَ قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ آخذًا موقعًا بيانيًّا، فكأنَّ سائلًا سأل: فماذا سيكونُ يومَ يأتي بعضُ آياتِ ربِّكَ؟ فالجواب: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾، وهذا تَذْكِيرٌ لَهُمْ بِأَنَّ الانْتِظَارَ وَالتَّرَيُّثَ عَنِ الْإِيمَانِ وَخِيمُ الْعَاقِبَةِ، آيِلٌ صاحبه إلى سوء المآل؛ لِأَنَّهُ مُهَدَّدٌ بِمَا يَمْنَعُ مِنَ التَّدَارُكِ عِنْدَ النَّدَامَةِ، فَإِمَّا أَنْ يَعْقُبَهُ الْمَوْتُ وَالْحِسَابُ، وَإِمَّا أَنْ يَعْقُبَهُ مَجِيءُ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ اللهِ - وَهِيَ آيَةُ عَذَابٍ خَارِقٍ لِلْعَادَةِ، يَخْتَصُّ بِهِمْ - فَيَعْلَمُوا أَنَّهُ عُقُوبَةٌ عَلَى تَكْذِيبِهِمْ وَصَدِّهِمْ، وَحِينَ يَنْزِلُ ذَلِكَ الْعَذَابُ لَا تَبْقَى فُسْحَةٌ لِتَدَارُكِ مَا فَاتَ؛ لِأَنَّ اللهَ إِذَا أَنْزَلَ عَذَابَهُ عَلَى الْمُكَذِّبِينَ، لَمْ يَنْفَعْ عِنْدَهُ استدراكٌ ولا معاذير[1].

التَّأخُّرُ عَنِ الإيمانِ وخيمُ العقبى، سيِّئُ المآل

بلاغةُ أسلوبِ اللَّفِّ:

في جملة ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ "اشتملَ هذا الكلامُ على النَّوعِ المعروفِ من علم البيان والبلاغةِ باللَّفِّ، وأصلُ الكلام: (يوم يأتي بعض آيات ربِّك، لا ينفع نفسًا لم تكن مؤمنةً قبلُ، إيمانُها بعدُ، ولا نفسًا لم تكسب في إيمانها خيرًا قبل، ما تكسبه من الخيرِ بعدُ)، إلَّا أنَّه لفَّ الكلامين، فجعلهما كلامًا واحدًا بلاغةً واختصارًا وإعجازًا، ومبدأ أهل السُّنَّةِ: لا ينفع بعد ظهورِ الآياتِ اكتسابُ الخير، وإن نفع الإيمانُ المتقدِّم في السَّلامة من الخلود في النَّار"[2]، "ولم يعقِّب عليه بالنَّشرِ؛ لأنَّ المآل واحدٌ، وهو معروفٌ لكليهما"[3].

بعدَ ظهورِ الآياتِ للبشرِ، لا ينفعُ عذرُ من تابَ واعتذرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/186.
(2) وهبة الزّحيلّي، التّفسير المنير: 8/112، ونقلا عن أحمد الإسكندريّ من حاشيّته على الكشّاف: 1/537.
(3) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/284.

نكتةُ إظهارِ ﴿بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ وتكرارِها في موضعِ إضمارِها:

أهمِّيَّةُ الزِّيادة في البيانِ، وتدعيمُ المعنى وتأمينُهُ

قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾، الجملةُ هنا من بابِ وضعِ الظَّاهرِ موضعَ المضمَرِ، فإنَّ التَّقديرَ يومَ يأتي بعضُها؛ لذكرِها على وجهِ الظَّاهرِ قبلَه بقولِه: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾، فإنَّه من وضْعِ الظَّاهرِ موْضعَ المُضْمَر، وهو من الظَّواهر المُهمَّة في لسانِ العرب، وذلك بأن يَرِد الظَّاهر، ثمَّ يُكرِّره، والمقامُ مقامُ الإضمارِ[1]، والغرضُ من ذلك زيادةٌ في البيانِ، وتقويَةٌ للمعنى وتحقيقُهُ؛ لأنَّ ما بعده معتمدٌ عليه، وهو مجيء الآياتِ القاهرةِ منه تعالى، وما يشتملُه من آياتٍ كطلوعِ الشَّمس من مغربِها ونحوه[2]، فضلًا عمَّا يوقعُه ذكْرُ هذه الآياتِ في النُّفوس من رهبةٍ ووجلٍ، وتحفيز لها على المسارعةِ في الخيرات.

دلالةُ الاحتراسِ في التَّعبير بالظَّاهر بدل المضمرِ:

من بلاغةِ النَّظمِ تدقيقُ المعنى بالاحتراسِ من إرادةِ سواه

التَّعبيرُ بالظَّاهر مع عدمِ التَّعبيرِ بالمضمرِ عندَ تكرارِ قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾، بابٌ من الاحتراسِ، فآياتُ اللهِ المذكورةُ هنا تحتملُ أنْ تكونَ مجيءَ الملائكةِ، أوْ مجيءَ أمرِ اللهِ، فهيَ مِنَ الآياتِ الأخرى، وهوَ غيرُ مرادٍ هنا، بلِ المقصودُ هنا علاماتِ القيَامَةِ[3]، فأعادَ الظَّاهرَ تنبيهًا واحترازًا، على أنَّها المقصودةُ لا تلكَ المذكورةُ أوَّلًا.

بلاغةُ التَّقديمِ للظَّرفِ على الجملةِ الفعليَّةِ:

اليومُ الموعودُ مؤكَّدُ الوقوعِ، وما قبلَهُ محتملُ الوقوعِ

قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾، تقديمُ الظَّرفِ ﴿يَوۡمَ﴾ على الجملةِ الفعليَّةِ، ﴿يَأۡتِيَ بَعۡضُ﴾، وحقُّه التَّأخيرُ، فلأنَّه محطُّ الاهتمامِ، وهو محلُّ التَّحذيرِ والتَّهديدِ لهم؛ و"لأنَّ إتيانَ الملائكة، والمعطوف عليه غيرُ محتملِ الوقوعِ، وإنَّما جرى ذكرُه

(1) الكفويّ، الكليّات، ص: 136.
(2) الشّيخ زاده، حاشية الشّيخ زاده: 4/178، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/699.
(3) ابن عبّاس، تنوير المقباس، ص: 123، والسّيوطي، الدّر المنثور: 3/389.

إبطالًا"[1] لأقوالهِم السَّابقةِ من نحو: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ [الإسراء: 92].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في قوله تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾:

غـــرضُ نـفـي النَّفعِ، متعلِّقٌ بـالآخـرةِ، وهي أمرٌ مستقبليٌّ

قولُه تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾، نفيُ النَّفعِ عن النَّفسِ، وردَ هنا بصيغةِ المضارعِ الدَّالِّ على استحضارِ الصُّورةِ، على أنَّها مشهدٌ حيٌّ يراهُ المتدبِّرُ بعينهِ، وهذا أوقعُ في التَّأثيرِ، فَضْلًا عنْ دلالتهِ على الحالِ أوِ الاستقبالِ؛ لأنَّ النفعَ المقصودَ هنا هوَ نفعُ الآخرةِ بنجاةِ النَّفس مِنَ العذابِ[2]، وهوَ نفعٌ فيما يُستقبَلُ مِنَ الزَّمانِ، أمَّا نفعُ الدُّنيا الفائتُ، فلا يقعُ عندَ مجيءِ آياتِ يومِ القيامةِ.

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿نَفْسًا﴾ في سياقِ النَّفي:

غـرضُ التَّـنـكـيرِ إفـادةُ الـعـمـومِ والشُّمولِ، لكلِّ نفسٍ منفوسةٍ

قولُه تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾، هنا أوردَ كلمةَ ﴿نَفْسًا﴾ بالتَّنكيرِ، ونكتةُ ذلك إفادةُ العمومِ والشُّمولِ[3]، فالقاعدةُ عندَ العربِ ناطقةٌ بأنَّ "النَّكرةَ في سياقِ النَّفيِ تعمُّ"[4]، فالمعنى منْ عدمِ انتفاعِ النَّفسِ بإيمانها، يشملُ كلَّ نفسٍ وُضعتْ هذا الموضعَ.

دلالةُ تقديمِ المفعولِ على الفاعلِ:

غـرضُ التَّـهـديـدِ والوعيدِ ردعُ كلِّ نفسٍ مستهينةٍ بذلك اليوم

قولُه تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾، هنا قدَّم المفعولَ ﴿نَفْسًا﴾ على الفاعلِ ﴿إِيمَٰنُهَا﴾، وهذا التَّقديم يحقِّق الإيجاز في التَّعبيرِ من خلال اتِّصالِ الضَّميرِ العائدِ على المفعولِ، بالفاعلِ إيمانها[5]، فضلًا عنْ كونِ السِّياقِ هنا قائمٌ على التَّهديدِ والوعيدِ لكلِّ نفسٍ، مهما كانتْ، فإنَّهُ لنْ يغنيَ عنها في ذلكَ اليومِ شيءٌ، فالمقصودُ أساسًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/190.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/186.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 8/65، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/187.
(4) ابن الخبّاز، توجيه اللّمع، ص: 229.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/187.

من التَّهديد، هو هذه النُّفوسُ، فكان تقديمُها للعنايةِ بها، من حيثُ إنَّها مناطُ هذا الأمر.

علَّةُ إضافةِ الإيمانِ إلى النَّفسِ:

قولُه تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾، أضافَ الإيمانَ إلى النَّفسِ؛ للإشارة أنَّه لا غنى لأيِّ نفسٍ كانت أن تنفكَّ عن هذا الإيمانِ ؛ لأنَّه مركوزٌ في الفطرةِ، ومن المقوِّماتِ الأساسيَّة لهذه النَّفس الَّتي لا تفارقُها بحالٍ، فضلًا عن كونِها من بابِ التَّعريضِ بالمشركين؛ لأنَّ إيمانهم ليس حقيقيًّا صادقًا، بل هو إيمانٌ شكليٌّ، وآية ذلك أنَّهم لم ينتفعوا منه، فأوردَهم المهالك.

لا انفكاكَ للنَّفسِ عنِ العقيدةِ، والإيمانُ الصُّوريُّ لا نفعَ لَهُ

الموقعُ البيانيُّ لقولِهِ: ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾:

قولُه تعالى: ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾، جملةٌ وقعتْ صفةً للنَّفسِ السَّابقةِ، لذا لمْ تعطفْ عليها، لكمالِ اتِّصالِها بها، فقدْ خصَّصتْ عمومَها، ويمكن أنْ تُحملَ على الاستئنافِ البيانيِّ، جوابًا عنْ سؤالٍ مقدَّرٍ في الذِّهنِ: (ما هيَ النَّفس الَّتي لا ينفعُها إيمانُها؟)، ويَحتملُ أنْ تُحملَ على الحاليَّةِ، وهوَ أقوى[1]، لتعالُقِ هذهِ الجملةِ بِما قبلَها، ممَّا لا يحسنُ فيه الانفصالُ؛ ولأنَّ افتقادَ الإيمانِ قبلًا، حالَ تحوُّلٍ إلى الإيمانِ فيما بعدُ، غيرَ أنَّهُ لمْ يكنْ ذا منفعةٍ لفواتِ أوانِ التَّوبةِ.

تخصيصُ عمومِ النَّفسِ بالإيمانِ ضرورةٌ لا مندوحةَ منها

نكتةُ التّعبيرِ بـ(كان) مع الفعلِ ﴿ءَامَنَتْ﴾:

قولُه تعالى: ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾، جاءتْ (كانَ) هنا للإشارةِ إلى أنَّهُ لمْ يتمكَّنِ الإيمانُ في هذهِ النَّفسِ، ولمْ يكنْ وصفًا ملاصقًا لها، وجاءتْ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ بـ﴿لَمْ﴾ الَّتي قلبتْ معنى المضارعيَّة إلى معنى الماضويَّةِ، والمعنى النَّفسُ الَّتي ما كانتْ آمنتْ منْ قبلُ، فدلَّتْ على تيسيرِ الأمرِ بتقريبِ زمانِ القبلِ، فإنَّهُ لمْ

في استعمالِ (كان) إشارةٌ إلى عدمِ تمكُّنِ الإيمانِ في هذه النَّفْسِ

(1) العكبريّ، التّبيان: 1/552، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 5/235.

يَجْعَلِ الإيمانَ مستغرقًا في الزَّمنِ، لكنَّهُ قيَّدهُ بقبلِ إتيانِ الآيةِ بزمنٍ موصولٍ بمجيئِها[1].

نكتةُ حذفِ مُتَعَلِّقِ الإيمانِ في قوله: ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ﴾:

حـذفُ مُتَعَلِّقِ الإيمانِ، يقتضي التَّعـمـيـمَ في السِّياق

قولُه تعالى: ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ﴾ فعلُ الإيمانِ، يقتضي معمولًا متعلِّقًا، فإنَّ الإيمانَ «أنْ تؤمنَ باللهِ، وملائكتِه، وكتبِه، ورسلِه، واليومِ الآخرِ، وتؤمنَ بالقدرِ خيرِه وشرِّه»[2]، ولمَّا أرادَ نفيَ الإيمانِ عنهمْ على وجهِ العمومِ، حذفَ مُتَعَلِّقَ الإيمانِ؛ فإنَّهم لمْ يؤمنوا بشيءٍ منْ ذلكَ، حتَّى إتيانِ العلاماتِ الدَّالَّةِ على اليومِ الآخرِ، فالحذفُ هنا أبلغُ في الدَّلالةِ على نفيِ الإيمانِ عنهمْ بالكليَّةِ.

فائدةُ الجملةِ الخبريَّةِ في قولِهِ: ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾:

الـتَّـوكـيـدُ والـتَّـوبـيـخُ مِن أغـراضِ الخبرِ المُبَيَّنةِ

دلَّت الجملةُ الخبريَّةُ في قولِهِ تعالى: ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ﴾ على التَّوكيدِ والتَّوبيخِ في آنٍ معًا، فإنَّ الإيمانَ مذكورٌ قبله، وهذا توكيدٌ لهُ، وأنَّ إيمانَهمْ لمْ يكنْ نافعًا لهمْ عندَ إغلاقِ بابِ التَّوبةِ، وهذا توبيخٌ لمنْ آمنَ، ولمْ يَنتفعْ بإيمانه.

فائدةُ ذكرِ حرفِ الجرِّ ﴿مِن﴾ في قولِهِ: ﴿مِن قَبْلُ﴾:

النُّفوسُ المُتأبِّيةُ عـن الإيـمـان في إبَّانه، لا ينفعُها بعد أوانه

قولُه تعالى: ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾، في ذكرِ حرفِ الجرِّ ﴿مِن﴾ دلالةٌ ومعنًى، فذكرُها لاستبعادِ اقترانِ هذه النُّفوسِ بالإيمانِ من أوَّلِ أمرها، فإنَّ ﴿مِن﴾ تفيدُ ابتداءَ الغايةِ.

معنى ﴿أَوْ﴾ في قوله: ﴿أَوْ كَسَبَتْ﴾:

النُّـفـوسُ البشريَّةُ، منها: كافرةٌ لمْ تؤمنْ، ومـؤمـنـةٌ لـمْ ينفعْها إيمانُها

قولُه تعالى: ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾، جاءت النُّفوسُ في الآيةِ على نوعينِ: نفوسٍ كافرةٍ لمْ تؤمنْ، ونفوسٍ مؤمنةٍ لمْ ينفعها إيمانُها؛ لأنَّها ما كسبتْ في ذلكَ الإيمانِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/333.
(2) مسلم، الصحيح، الحديث رقم: (8).

خيرًا[1]، فجاءت ﴿أَوۡ﴾ مفيدةً للتَّقسيمِ، والتَّقسيمُ من خصائصِ (أو) العاطفة[2].

الموقعُ البيانيُّ لقوله تعالى: ﴿أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾:

جملة ﴿أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾، واقعةٌ موقعَ العطفِ على جملة: ﴿لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ﴾، فهيَ صفةٌ أخرى أوْ حالٌ ثانيةٌ للنَّفسِ الَّتي لا تنتفعُ بإيمانها، فإنَّ أشراطَ السَّاعةِ إنْ ظهرتْ "ذهب أوانُ التَّكليفِ عندَها، فلمْ ينفعِ الإيمانُ حينئذٍ نفسًا غيرَ مُقدِّمةٍ إيمانَها منْ قبلِ ظهورِ الآياتِ، أوْ مقدِّمةَ الإيمانِ غيرَ كاسبةٍ في إيمانِها خيرًا"[3]، وبين العبارتين ترابطٌ لا ينحلُّ على أسلوبِ قولِهِ تَعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فلا يجدي إيمانٌ من غيرِ عملٍ صالحٍ.

نكتةُ العدولِ عن ذكرِ (كان) مع الكسبِ في الآيةِ الكريمة:

قولُه تعالى: ﴿أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾، عَدَلَ عن ذكرِ الفعلِ النَّاقصِ (كان)، مع فعلِ الكسبِ ﴿كَسَبَتۡ﴾، اختصارًا لدلالةِ الكلامِ السَّابقِ عليه، بقولِهِ: ﴿لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ﴾، فقد ذكرَ فعلَ الكَوْنِ مع الإيمانِ، والنَّحويُّون يقولون: "وحذْفُ ما يعلم جائزٌ"[4]، ولأنَّهُ هنا نفى عنها الكَسْبَ فقطْ، وهناكَ نفى عنها الإيمانَ مطلَقًا، فضلًا عنْ نفيِ تمكُّنِهِ في النَّفسِ الَّتي منْ شأنِها في الأصلِ ألَّا تنفكَّ عنهُ؛ لأنَّهُ مركوزٌ في الفطرةِ.

النَّفسُ لا تنفكُّ عن الإيمان؛ لأنَّهُ مركوزٌ في الفطرةِ

بلاغةُ التَّقديمِ لشبهِ الجملةِ على المفعولِ:

قولُه تعالى: ﴿كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾، في ذكرِ شبهِ الجملةِ وتقديمِها ﴿فِيٓ إِيمَٰنِهَا﴾، على المفعولِ ﴿خَيۡرٗاۗ﴾، الإيماءُ إلى علوِّ

سرُّ التَّنويهِ بمنزلةِ الإيمانِ باعتبارِ أنَّ الخيرَ منحصرٌ فيه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/187.
(2) ابن الصّائغ، اللّمحة في شرح الملحة: 2/694.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/415.
(4) الشّاطبيّ، المقاصد الشّافيَة: 2/91.

الإيمانِ ومكانته، فكأنَّهُ يجعل كسبَ الخيرِ منحصرًا في الإيمانِ، أي: إنَّها ما كسبَتِ الخيرَ في إيمانِها فحسب، بلِ اقتصرتْ على الإيمانِ فقطْ[1]، وهوَ حصرٌ متأتٍّ منْ تقديمِ الإيمانِ، وأنَّهُ ينبغي لهذا الإيمانِ ألَّا ينفكَّ عَنِ النَّفسِ، بلْ هوَ ملاصقٌ لها لا ينفكُّ عنها بحالٍ مِنَ الأحوالِ، لذا أضيفَ إليها، فضلًا عنْ كونِ المقامِ للعنايةِ بهذهِ النَّفسِ.

نكتةُ المجازِ في استعمالِ ﴿فِيٓ﴾ الظَّرفيَّة في قوله: ﴿فِيٓ إِيمَٰنِهَا﴾:

الـغـرضُ مِـنَ الظَّرفيَّة إفادةُ مُـدَّةِ الإيـمـانِ وإحـاطـتِـه وشمولِه

قولُه تعالى: ﴿كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾، للجارِّ في قولِه: ﴿فِيٓ إِيمَٰنِهَا﴾ إشارةٌ ظرفيَّةٌ، فهوَ دليلٌ على مدَّةِ الإيمانِ، وليسَ الإيمانُ نفسُهُ، أيْ: إنَّ الخيرَ منْ صالحِ الأعمالِ، خالصِ الطَّاعاتِ، يجبُ أنْ يكسبَ في مدَّةِ الإيمانِ، والتَّقديرُ: أنَّها كسبتْ في مدَّةِ إيمانها خيرًا[2]، ليتوافقَ الاعتقادُ معَ العملِ. فضلًا عنْ أنَّ الحرف ﴿فِيٓ﴾ هنا، يدلُّ على الظَّرفيَّة المجازيَّة، حيث أفادتْ إحاطةَ الإيمانِ بالنَّفسِ إحاطةَ الظَّرفِ بالمظروفِ، فشَبَّهتِ الإيمانَ بشيءٍ منْ شأنِه أنْ يحيطَ بالنَّفسِ منْ جميعِ أطرافِها؛ لأنَّ لوازمَ الإيمانِ وأدلَّتَهُ، تحيطُ الإنسانَ في الأنفسِ. ويمكنُ أنْ تكونَ ﴿فِيٓ﴾ هنا سببيَّةً على معنى: أنَّ هذهِ النَّفسَ لمْ تكسبْ بسببِ إيمانها حينَ آمنتْ أيَّ خيرٍ مهما كانَ.

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿خَيْرًا﴾:

غـرضُ التَّـنـكـيرِ إفـادةُ تعميمِ الخيرِ المكتسَبِ

قولُه تعالى: ﴿كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾، أورد كلمة ﴿خَيْرًا﴾ هنا نكرةً، وهيَ في ذلكَ واقعةٌ في سياقِ النَّفيِ فتكون عامَّةً "ويلزمُ أنْ يكونَ نفعُ الإيمانِ بمجرَّدِ الخيرِ، ولوْ واحدًا"[3]، فتنكيرُ الخيرِ يلزمُ نفعُه، ولو كانَ قليلًا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/187.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/187.
(3) الآلوسّي، روح المعاني: 8/67.

تقديمُ النَّفسِ (غيرِ المؤمنةِ) على الَّتي (لم تكسبْ في إيمانها خيرًا):

قولُه تعالى: ﴿لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾، ذكرَ في الآيةِ جملتينِ قدَّمَ واحدةً، وأخَّرَ الأخرى، فتقدَّمتِ الجملةُ المعنيَّةُ بنفي الإيمانِ، وتأخَّرتِ المعنيَّةُ بنفي الكسبِ بذلكَ الإيمانِ، وهوَ مِنْ بابِ تقديمِ الأصلِ على الفرعِ، فإنَّ الإيمانَ هوَ الأصلُ، ثمَّ يترتَّبُ عليهِ أنْ تكسبَ النَّفسُ الخيرَ بهذا الإيمانِ، فالأهمُّ هوَ الإيمانُ، يتلوهُ صنيعُ الإنسانِ المُؤسَّسُ على ذلكَ الإيمانِ.

من البلاغةِ تقديمُ الأصلِ على الفرعِ، والأهمِّ على المهمِّ

بلاغةُ الإيجازِ في استعمالِ أسلوبِ التَّقسيمِ:

قولُه تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾، في الكلامِ إيجازٌ بالحذفِ، تقديرُهُ: "لا ينفعُ نفسًا غيرَ مؤمنةٍ إيمانُها، أوْ نفسًا لمْ تكنْ كسبتْ خيرًا في إيمانِها منْ قبلِ كسبِها، يعني: أوْ ما يقومُ مقامَ كسبِ الخيرِ مثلُ التَّوبةِ، فإنَّها بعضُ اكتسابِ الخيرِ"[1]، فليسَ المغزى المرادُ أنْ يضيعَ الإيمانُ، إنْ لمْ يكنْ معهُ كسبٌ، وهذهِ مزيَّةُ التَّقسيمِ، ولولا ذلكَ لعبَّرَ عنْ نفيِ النَّفعِ حالةَ كونِ الكسبِ معدومًا.

دلالةُ الألفاظِ المذكورةِ على المحذوفةِ من جميلِ البيانِ

بلاغةُ الإدماجِ في قوله ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾:

قولُه تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾، ظاهرُ الآيةِ ينعى على المشركينَ التَّأنِّيَ في دخولِ الإيمانِ؛ لأنَّ عاقبتَهُ وخيمةٌ إنْ ظهرتِ الآياتُ، ثمَّ أدمجَ معَ هذا المقصودِ، تحذيرًا للمؤمنينَ مِنَ التَّجافي عَنِ الأعمالِ الصَّالحةِ، وعدمِ المبادرةِ إليها، وهوَ المفهومُ منْ قولِهِ: ﴿أَوْ كَسَبَتْ﴾.

تحذيرُ المشركينَ، يتضمَّنُ تعريضًا بالتَّحذيرِ للمؤمنينَ

نكتةُ الأمرِ بـ﴿قُلِ﴾ في قوله تعالى ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟﴾:

قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، ذكرَ فعلَ الأمرِ ﴿قُلِ﴾،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/188.

الإشـــارةُ إلى أهـمّـيّـةِ مـقـولِ الـقـولِ في دلالـة السِّياق عن المرادِ

لنكتةٍ، وهيَ الإشارةُ إلى أهمِّيَّةِ مقولِ القولِ، وهوَ الانتظارُ الدَّالُّ على الوعيدِ والتَّهكُّم، وقدْ حُفَّتِ السُّورةُ بهذا الفعلِ (قلْ)، ممَّا يدلُّ على أهمِّيَّةِ الأمورِ الَّتي تأتي بعدَها، وأنَّ هذهِ التَّكاليفَ مِنَ الأهمِّيَّةِ بمكانٍ، بحيثُ ينبغي للنَّبيِّ ﷺ، أنْ يبلِّغها بنفسهِ.

سرُّ تتابعِ فَعْلَيِ الأمر في قوله ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ﴾:

ورودُ الفعلين المُتتابعين بالأمرِ، قد يفيدُ التَّهديدَ والوعيدَ

قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ﴾، تضمَّنَ فعلَيْ أمرٍ، الأولُ: ﴿قُلِ﴾ مع فاعلِه، والثَّاني: فعلُ الأمرِ ﴿ٱنتَظِرُوٓاْ﴾ مع فاعلِه، وسرُّ تواليهما: إفادةُ التَّهديدِ والوعيدِ من مجيءِ الآياتِ والعذابِ، والتَّقديرُ: سترون من يكونُ كلامُه صحيحًا[1].

الغرضُ البيانيُّ من الأمرِ بالانتظار ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ﴾:

الأمـرُ بالانتظارِ تهديدٌ ووعيدٌ

والغرضُ البيانيُّ من فعلِ الأمرِ ﴿ٱنتَظِرُوٓاْ﴾، ليس على ظاهرِه، وإنَّما قصدَ التَّعريضَ والتَّهديدَ[2] للمشركين بالعذابِ في الدُّنيا والآخرةِ، وفيه تقريرٌ لحرِّيَّتهم الدِّينيَّة وتَحميلُهمُ المسؤوليَّةَ، والمعنى: "قل لهؤلاءِ الكافرين، بعد بيان حقيقة الحال، على وجه التَّحديد: انتظروا ما تنتظرونه، من إتيان أحدِ الأمور الثَّلاثةِ، لتروا أيَّ شيءٍ تنتظرون، إنَّا مُنْتَظِرُونَ، أي: لذلك، لنشاهدَ ما يحلُّ بكم من سوءِ العاقبةِ"[3].

نكتةُ حذفِ مُتَعَلَّقِ فعلِ الأمرِ ﴿ٱنتَظِرُوٓاْ﴾:

غـــرضُ حـــذفِ المفعولِ للتَّهويلِ والتَّعظيمِ من بلاغةِ الأسلوبِ

قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ﴾، الفعلُ هنا يقتضي مفعولًا، وهوَ على تقديرِ: انتظروا العذابَ، أوِ انتظروا عاقبةَ أمركمْ[4]، والانتظارُ مِنَ الترقُّبِ، وحذفُ مفعولِ الفعلِ ﴿ٱنتَظِرُوٓاْ﴾ للتَّهويلِ والتَّعظيمِ، أي: انتظروا كلَّ ما منْ شأنهِ أنْ يُفْزِعَكُمْ، وأنْ يُرْهِبَكُمْ من ألوانِ العذابِ الدُّنيويِّ والأخرويِّ.

(1) الخازن، لباب التّأويل: 2/176، وابن عطّية، المحرّر الوجيز: 2/367.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/700.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 4/550.
(4) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/497، والشّوكانّي، فتح القدير: 2/606.

الموقعُ البيانيُّ لِقولِهِ: ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ في الآية الكريمةِ:

غـرضُ حُسْنِ الـفـصـل في الـجـمـلـةِ المُستأنَفةِ الاهتمامُ بها

يجوزُ أن يكونَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، بعدَ قولِه: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ﴾ على تقديرِ الكلامِ: انتظروا ننتظرْ معكمْ على أنَّها جملةٌ واقعةٌ في جوابِ الطَّلبِ. ويمكنُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، استئنافًا بيانيًّا، على تقديرِ سؤالٍ: (وماذا تفعلونَ أنتمْ؟)، لذا لمْ تُعطفْ عليها، فالمعطوفُ لكونِهِ تابعًا، لا يَهتمُّ لهُ السَّامعونَ كمالَ الاهتمامِ، ولقوَّةِ الارتباطِ بينَ هذهِ الجملةِ وما قبلَها، فالجميعُ قائمٌ على الانتظارِ، فأنتمْ تنتظرونَ إتيانَ أحدِ الأمورِ الثَّلاثةِ، ونحنُ منتظرونَ لنعاينَ ما سوفَ يَحيقُ بكمْ مِنْ عقابٍ[1].

دلالةُ توالي المؤكِّدات في فاصلةِ الآيةِ:

إذا كان التَّهديدُ والـوعـيـدُ من الـلـه؛ كـان الهلاك ساحقًا ماحقًا

في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، طائفةٌ مِنَ المؤكِّداتِ، منها: إنَّ، والجملةُ الاسميَّةُ، فضلًا عنْ مجيءِ المسنَدِ الفعليِّ ﴿مُنتَظِرُونَ﴾ الَّذي أفادَ تقويَةَ الحكمِ، وقدْ أفادَ توالي هذهِ المؤكِّداتِ التَّهديدَ والوعيدَ لهمْ.

غرضُ الجملةِ الخبريَّة في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾:

المسلمون ينتظرون نصرَ اللهِ المبينَ بما وعد به عباده الصَّالحين

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، جملةٌ خبريَّةٌ جمعتْ بين أمرين؛ انتظارِ المسلمين لنصرِ اللهِ، ونزولِ العقابِ بأعدائِهم"[2]، فهذا هو معنى الانتظارِ، ومفاد المعنى: أنَّ اللهَ يقول لهم: (انتظروا - أيُّها المعاندون - ما تتوقَّعون إتيانه ووقوعَه بنا، واكتفاء أمر الإسلام به، إنَّا منتظرون وعدَ ربِّنا لنا ووعيده لكم)، كقولِه تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يونس: 102].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/313.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/191.

نكتةُ مجيءِ ضمائرِ الجمعِ في الفاصلةِ وحذفِ المُتَعَلَّقِ:

جملةُ الفاصلةِ، كالتَّعليلِ لما سبقها، وهو من فصيحِ البيانِ

قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾: وردتِ الضَّمائرُ في الفاصلةِ بصيغةِ الجمعِ في المسنَدِ إليه (نا)، والمسنَدِ ﴿مُنتَظِرُونَ﴾، مُناسِبَةً لما قبلَها من جمعٍ، وهو قولُه: ﴿ٱنتَظِرُوٓاْ﴾ فجملةُ الفاصلةِ، كالتَّعليلِ لما سبقها من أمرِ الانتظارِ[1]، وحذفَ متعلَّقَ الانتظارِ، ليشملَ إعلاءَ اللهِ لشأنِ المؤمنين، وعذابَ الكافرين.

نكتةُ مجيءِ ﴿مُنتَظِرُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الانتظارُ فيه تهكُّمٌ بهم، وهو دالٌّ على التَّمكُّنِ والثِّقةِ بنصرِ الله

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ إيرادُ لفظةِ ﴿مُنتَظِرُونَ﴾ دلَّت على الترقُّبِ والتربُّصِ، وصيغةُ اسمِ الفاعلِ دلَّت على قوَّةِ تمكُّنِ الفعلِ بالفاعلِ، وهذا أبلغُ في تهديدِهم ووعيدِهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(النَّظر) و(الانتظار):

النَّظرُ متعلِّقٌ بالحقيقةِ المشاهَدةِ، والانتظارُ بترقُّبِ الخيرِ أو الشَّرِّ

النَّظرُ يكونُ بمعنى البَصرِ العينيِّ، وهوَ الأشيعُ، ويكونُ بمعنى البصيرةِ والتَّفكُّرِ، والواردُ في الآيةِ مِنَ المعنى الأوَّلِ؛ فإنَّ الأمرَ متعلِّقٌ بالحوادثِ الَّتي تُرى، وتشاهَدُ كأشراطِ السَّاعةِ، ومنها طلوعُ الشَّمسِ منْ مغربها[2]. وقدْ يكونُ النَّظرُ بمعنى الانتظارِ؛ لأنَّ "الانتظارَ طلبُ ما يقدرُ النَّظرُ إليهِ، ويكونُ في الخيرِ والشَّرِّ، ويكونُ معَ شكٍّ ويقينٍ"[3]، والواردُ في الآية ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾، من هذا البابِ، وهو استعمالُ النَّظرِ بمعنى الانتظارِ، فإنَّهم لا يؤمنون حتَّى يروا هذه الآياتِ[4].

(الإنظار) و(الإمهال):

الإنظارُ: مقيَّدٌ بما هو محلٌّ للنَّظرِ، والإمهالُ: الإبهامُ

ومِمَّا يَقْرُبُ معنًى مِنَ الانتظارِ، لفظةُ الإمهالِ، إلَّا أنَّ ثمَّةَ فرقًا دقيقًا بينهما، وهوَ أنَّ الإنظارَ مقترنٌ بمقدارٍ معيَّنٍ، يكونُ محلًّا

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم: 8/191.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/415.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 75.
(4) الشّيخ زاده، حاشية الشّيخ زادة: 4/178.

للنَّظرِ، أمَّا الإمهالُ؛ فهوَ على نيَّةِ الإبهامِ[1]، والواقعُ في الآيةِ ليس منه؛ لأنَّ انتظارَهم موقَّتٌ بزمنِ إتيانِ الملائكةِ، أو إتيانِ أمرِ اللّهِ، أو أشراطِ السَّاعةِ[2].

(الانتظار) و(التربُّص):

الفرقُ بينهما: أنَّ الانتظارَ عامٌّ، والتَّربُّصَ: طولُ الانتظارِ، والأصلُ فيهِ مِنَ الرَّبْصَةِ، وَهيَ البقاءُ طويلًا في الانتظارِ[3]، والواردُ في الآيةِ مَظِنَّتُهُ زمنٌ قريبٌ، والمعنى: "ما ينتظرونَ هؤلاءِ المكذّبونَ أدنى انتظارٍ، وَأَقْرَبَهُ وأيسرهُ"[4]، فورودُ الانتظارِ أبلغُ وأدقُّ، وأدلُّ على المعنى المرادِ في الآيةِ.

التَّربُّصُ البقاءُ طويلًا في الانتظارِ، والانتظارُ في الآيةِ تهديدٌ ووعيدٌ

وفيهِ فرقٌ آخَرُ، وهوَ أنَّ التَّربُّصَ هوَ الانتظارُ الَّذي يحملُ معهُ الخيرَ أوِ الشَّرَّ الَّذي يحلُّ بالمتربِّصِ به[5]، أمَّا الانتظارُ الواردُ في الآية ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾، فقدْ أجمعتْ كلمةُ المفسِّرينَ، على أنَّ المقصودَ مِنَ الانتظارِ، هوَ التَّهديدُ والوعيدُ[6].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 202.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 14/8.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 76.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/331.
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (ربص).
(6) الماتريديّ، تأويلات أهل السُّنّة: 4/331، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/416، وابن عطيّة، المحّرر الوجيز: 2/367، وغيرهم من المفسّرين.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني عشر، سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 12 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-64-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 12 : سورة الأنعام من الآية 124 إلى سورة الأعراف الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-798-64-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1637585 بتاريخ 2023/12/19م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»